

وكما لا يقبل هذا إلا العدول الخيار كذلك هذا بقوله تعالى (من ترضون من الشهداء) فلما كان هذا لا يؤخذ إلا المرضى الحال فلا يؤخذ هناك ضده هذا ما تقتضيه الحكمة (وفيه إشارة لطيفة) وهي أن إعلامك بهذه المرتبة الرفيعة عناية بك لتحافظ عليها لعلك من تكون يشهد إذ ذلك لأنه يرجي من فضل الكريم أن من قبلت شهادته أن يسامحه ويفضل عليه بالخلاص من ذلك الهول العظيم (وفيه تنبيه) إلى أن الشهود وإن اختلفت مراتبهم في الرفعة إذ لم يخرجوا من دائرة العدالة قبلوا كلامهم يؤخذ ذلك من قول نوح عليه السلام حين يسئل عن شهوده قال (محمد وأمه) فجعله صلى الله عليه وسلم من جملة الشهود وبه صحت العدالة لمتبعيه (وفيه دليل) على أن المخالف للسنة لا يكون ممن يشهد معه ولا يشهد معه إلا من تبعه بالاحسان لأن أولئك هم العدول وغيرهم أطراف لا وسط ولا عدول يقوى ذلك قوله عليه السلام (كلها في النار إلا واحدة ما أنا عليه وأصحابي) فمن يكون في النار أنى له بالوسط من الأمة والتعديل هذا في تجربته أنهم دليل (تنبيه) يا أخا البطالة والتلويت لنفسك انتبه الحاكم قد زكك وأنت بما ارتكبت من قبيح الأوصاف تخرج نفسك وبذلك تفرخ فقد خضت بحر المهالك وعلى عقبك من الخير نكصت (وفيه دليل) على أن أقوى الأدلة في الأحكام كتاب الله تعالى يؤخذ ذلك من ترك سيدنا صلى الله عليه وسلم تمام الكلام الذي أبداه وأتى بالآية من الكتاب العزيز وما يقوى ذلك قول معاذ له صلى الله عليه وسلم حين وجهه إلى اليمن قال له عليه السلام «بماذا تحكم قال بكتاب الله تعالى قال فان لم تجد قال بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فان لم تجد قال أجتهد رأيي فقال صلى الله عليه وسلم الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله إلى ما يحب الله ورسوله» أو كما ورد وفقنا الله في جميع الأمور إلى ذلك بمنه وأسعدنا به

(٢٩١) (حديث مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا الله تعالى)

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله لا يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله ولا يعلم ما في غد إلا الله ولا يعلم متى يأتي المطر أحد إلا الله ولا تدري نفس بأي أرض تموت إلا الله ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله

ظاهر الحديث يدل على هذه الخمسة المذكورة في الحديث لا يعلمها إلا الله والكلام عليه من وجوه (منها) أن يقال ما الحكمة في أن استعار للغيب مفاتيح وما الحكمة في أن جعلها خمساً وهل للغيب زيادة على تلك الخمس مفاتيح أم لا وما الحكمة في أن لم يذكر من أمور الغيب إلا تلك الخمسة (أما قولنا) ما الحكمة في أن استعار للغيب مفاتيح فلو جوه منها الاقتران بما به نطق الكتاب في ذلك بقوله تعالى (وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر) ومنها لتقريب الأمر على المخاطب لأن أمور الغيب

لا يخصصها أحد إلا عالمها وكل شيء حيل بينك وبينه فهو غيب وأقرب الأشياء فى ذلك هى الأبواب
والأبواب أقل ما يحبسها عن الفتح وأيسرها المفاتيح فإذا كان أيسر الأشياء التى يعرف بها الغيب
لا يعرف لها أحد موضعها فكيف يقدر أن يعرف ما هو أكبر من ذلك هذا محال وهذا من أبلغ البيان
وأخصره ﴿ومنها﴾ أنه أراد بالغيب الغيب الذى لا يعلمه أحد حقيقة لأن الغيوب على ما هى عليه وإن
كانت لبعض الغيوب أسبابا قد يستدل فى بعض المراد بها عليه أن ذلك ليس بحقيقى فى علم تلك الغيوب
وأما حقيقتها فلا يعلمها أحد إلا الله تعالى يشهد لهذا التوجيه قوله صلى الله عليه وسلم كناية عن الله
سبحانه «أصبح من عبادى مؤمن بنى وكافر بنى فأما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بنى
كافر بالكوكب وأما من قال مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بنى مؤمن بالكوكب» فعلى هذا فالغيب
على نوعين غيبه سبحانه عنا بذاته وصفاته وغيب بالأهوار الجارية فى مخلوقاته فلما كانت تلك الأمور
غائبة عنا لا تقدر على العلم بها ولا الوصول إليها وهى محصورة بالكتاب بقوله تعالى (وما تسقط من
ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين) ولقوله تعالى
(قال فما بال القرون الأولى قال علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى) فلما كان جميع
الوجود محصورا فى علمه سبحانه شبهه عليه السلام بالخازن وكل مخزن لا بد له من باب وكل باب
لا بد له من مفتاح فاستعار عليه السلام له المفاتيح يشهد لهذا التوجيه قوله تعالى (وإن من شيء إلا
عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم) فإذا كانت الخزائن عنده سبحانه والمفاتيح واحد لا نعلم
المفاتيح أين هى فكيف يخبر بما فى الخازن هذا لا يتعقل وإذا كانت هذه التى هى أثر قدرته سبحانه
ولا يقدر أحد أن يعلم منها شيئا إلا أن يخبره سبحانه بها كما قال تعالى فى كتابه (إلا من ارتضى من
رسول) فكيف بقدرته جل الله أو بصفة من صفاته على ما هى عليه من الجلال والكمال فكيف بذاته
التي «ليس كمثله شيء» هذا ممنوع عقلا وشرعا ومن تعانى شيئا من المعرفة فى شيء مما قسمنا من
الغيوب أو نوع من أنواعه أو تشبيه أو تمثيل بدليل من الأدلة فحال دعواه وهو ضرب من
الحق ﴿وأما قولنا﴾ ما الحكمة فى أن جعلها خمسا وهل للغيب زيادة على هذه المفاتيح فاعلم وفقنا
الله وإياك أن الحكمة فى أن جعلها خمسا الكلام عليه مثل ما تقدم الكلام على قول عائشة رضى
الله عنها كان رسول الله صلى الله عليه وسلم «يحب التيامن فى شأنه كله» ثم قالت «فى طهوره
وترجله وتنعله» فأنت من الفرائض بآكدها وهو الطهور ومن السنة كذلك وهو الترجل ومن
المباح كذلك وهو التنعل فحصرت بهذه الثلاث جميع ما يتصرف فيه المرء وكذلك هذه الخمس
حصر بها صلى الله عليه وسلم العوالم فقوله صلى الله عليه وسلم ﴿ما تفيض الأرض﴾ دليل على ما يزيد
فى النفوس وينقص وذكر منها الأرض لكونها للناس فى ذلك عوائد يعرفونها وقد تقرر على

ذلك أحكام شرعية فهذه أعلاها فإذا كانت هذه التي قد تقررت عليها الأحكام بحسب جرى العادة لا يعرف حقيقتها لا متى تزيد ولا متى تنقص فغيرها من باب أخرى قد قال تعالى (وما تغيبن الأرحام وما تزداد وكل شيء عنده بمقدار) فدل بهذا أن غيره سبحانه لا يعلم ذلك ومن هذا الباب كلام العلماء في عدة الحرة بثلاث حيض فهل ذلك دلالة حقيقة على برائة الرحم أو ذلك تعبد بحسب ما هو مذكور في كتبهم ولذلك قال جل جلاله (وفي أنفسكم أفلا تبصرون) فإذا كان الشيء الذي هو فيك لا تعرفه فكيف غيره من باب أخرى ودل بقوله (ولا يعلم متى يأتي المطر أحد إلا الله) على أمور العالم العلوي وذكر منها المطر لأننا أسباب قد تدل عليه ونجدها في بعض المرات يجرى فيها ما يغلب على الظاهر من جرى العادة المتقدمة في مثلها وهو أيضا كثير كما يتردد إليها وجعل لذلك وبأثره بحسب مقتضى الحكمة الإلهية رزق وخير لا تعرفه حقيقة فكيف غيره من باب أخرى وكذلك جاء الحديث الذي قد ذكرناه وهو قوله « أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر بي » وكان أبو هريرة رضى الله عنه إذا أصبح وقف مطر الناس يقول مطرنا بنوء الفتح ثم يتلو هذه الآية (ما يفتح الله للناس من رحمته فلا يسلكها) ودل بقوله (وما تدرى نفس بأى أرض تموت) على الجدل بهذه الأمور الأرضيات وذكره موضع الموت منها لأن العادة قد جرت غالبا أن أكثر الناس موتهم بالأرض التي هم بها والحكم في الأمور يعطى للغالب وإن مات بها لا يدرى حقيقة خريجه منها أين هو فإذا كان هذا المقدار الذى يخصه منها على قلته ونزاعته لا يعلمه فمن باب أخرى غيره من رزق أو خير أو ضده وذلك قال عز وجل في كتابه (وما تدرى نفس ماذا تسكب غدا وما تدرى نفس بأى أرض تموت إن الله عليم خبير) ودل بقوله (ولا يعلم ما فى غد إلا الله) على أنواع الزمان وما فيه من التقلبات والعوالم الطارئة فيه والحوادث وخص منه غدا على غيره لأن أقرب الأزمنة من يومك فإذا ما تعرفه في يومك بظهوره كان أوله أو آخره كأنه شيء واحد لأن عادة العرب ما يكون في ساعة واحدة أو في بعضها ينسبون كلة إلى يوم مثل قولهم جاء زيد يوم الخميس ولم يكن بجيشه إلا في ساعة منه أو في بعضها وكذلك أيضا أحكام الشريعة غالبا منها العدد ومنها الحيض إذا رأت المرأة الدم في اليوم ولو دفعة واحدة حسبت ذلك اليوم يوم دم فإذا كنت في أقرب الأزمنة وهو غد لا تعرفه فمن باب أخرى غيره ودل بقوله (ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله) على علم الآخرة بأجمعها وذكر يوم القيامة منها لأنه أولها وأقربها فإذا كنت لا تعلم أقرب الأشياء منها وهو يوم ظهورها وبدايتها فمن باب أخرى غير ذلك وقد قال الله تعالى (لا تأتيناكم إلا بغتة) أى على غفلة وقد قال تعالى (ثمأت فى السموات والأرض لا تأتيناكم إلا بغتة) أى عظم أمرها على أهل السموات والأرض والكل جاهلون بها وما يشهد لذلك قول سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم لجبريل عليه السلام حين « ٣٥ - رابع بهجة »

سأله عنها ما المسؤال عنها بأعلم من السائل ولكن أخبرك بشروطها أن تلد الأمة ربها فذلك من
أشراطها وأن ترى الحفاة العراة الضم البكم ملوك الأرض فذلك من أشراطها وأن ترى رعاة البهم
يتناولون في البنيان « أو كما قال عليه السلام فهذا من أبدع الكلام وأبغض الذي حصر فيه جميع
أنواع الغيوب وأزال به جميع الدعاوى الفاسدة والأدلة كلها ما عدا أدلة الشريعة على الحد الذي
جعلتها وعلى الوجه الذي بينتها وتحقق به لأهل الإيمان إيمانهم وحسن اعتقادهم بغير سير ولا تقسيم
ولا تنويع ولا تخيل ولا تعديد ولا تكليف ولا دعوى ولا اعتراض ولا مقدمة ولا نتيجة
ولا هياكل ولا عناصر ولا أعراض ولا جواهر ولا حكمه ولا طباع إلا بفضل كريم وهاب عليم
قدير مدبر حديم زليش كمثل شيء ويده ملكوت كل شيء وهو على كل شيء قدير وهو اللطيف
الخبير) ﴿ وفيه تنبيه ﴾ لطريق أهل الفضل والسلوك وهو ترك الالتفات إلى ما سواه عز وجل
والاشتغال بما به أمره والانتباه عما عنه نهى أمره بدعوى ما به من عليهم من الأحوال السنية والعلوم الجليلة
شيئاً ما لدوام الفقر والافتقار وخوف العدل العظيم والتعلق بكتاب الفضل العميم ولا يرون خلاصاً
إلا به سبحانه من الله علينا بذلك لأرب سواه يشهد لطريقهم المبارك واعتقادهم الحسن الموافق الكتاب
والسنة أما الكتاب فمعلوم في غير ما آية وأما السنة فقوله عليه السلام إخباراً عن ربه عز وجل
بقوله ﴿ يا عبادي كللكم ضال إلا من هديته فاستمدوني أهديكم يا عبادي كللكم جائع إلا من أطعمته
فاستطعموني أطعمكم يا عبادي كللكم عار إلا من كسوته فاستكسروني أكنسكم يا عبادي إنكم تخطئون
بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفروني أغفر لكم يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري
فتضروني ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى
قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم
كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك من ملكي شيئاً يا عبادي لو أن أولكم وآخركم
وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد وهمألوني فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك ما عندي
إلا كما ينقص الخيط إذا دخل في البحر يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن
وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه) أو كما قال عليه السلام فتتحقق
بمتضمن ما أوردناه أوصاف الربوبية وجلالها وفضيلة سيدنا صلى الله عليه وسلم وحسن هديه
لأمته وأوصاف العبودية ونقصها وحقارتها وعظم افتقارها للربوبية ودوام اضطرابها كما قال الحكيم
عليه السلام (رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير) جبر الله تعالى بغناه فقرنا وأزال بفضل جلالنا
وتجاوز برحمته عنا لأرب سواه ولا مرجو إلا إياه والحمد لله رب العالمين

(٢٩٢) (حديث ذكر الله تعالى لعبده إذا ذكره)

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَأَ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَأَ خَيْرٍ مِنْهُمْ وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ شَبْرًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً

ظاهر الحديث يدل على حكمين (أحدهما) لإخبار الصادق صلى الله عليه وسلم أن المولى سبحانه مع عبده على قدر ظنه بمولاه (والثاني) الإخبار بأنه مع عبده بحسب معاملته أو عبادته له والزيادة على ذلك بحسب التضعيف المذكور في الحديث والكلام عليه من وجوه

﴿ منها ﴾ أن يقال هل هذا الظن على بابه أو هو بمعنى العلم والقطع وهل الذكر هنا مجرد الذكر بالقلب أو باللسان وإن كان لا يعلم من الأوامر شيئاً أو يكون ذكره بالأفعال بالأمر والنهي لأن الذكر بساطها وماتأويل الصفات المذكورة في الحديث من قبل المولى سبحانه ﴿ أما قولنا ﴾ هل الظن هنا على بابه أو هو بمعنى العلم القطعي ﴿ فالجواب ﴾ أنه لا يمكن أن يكون الظن هنا على باب بل معناه العلم الحقيقي كقوله تعالى (وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه) وهم قد علموه علماً حقيقياً ولأن هذه الأمور القلبية كلها ما نحن فيها مطلوبون إلا بـتقيق الاخلاص لقوله عز وجل (وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء) والتصديق القطعي في كل ما به أخبرنا عن الإله وما به أنعم علينا من قبيل ما كافنا من التعبدات والتحقيق بجزيل الثواب الذي وعدنا والخوف بما به توعدنا لمن خالف أمره عز وجل ذلك كله بلا شك ولا ريب وكذلك ما به من أمور الآخرة أخبرنا ولذلك قال تعالى في صفتهم (ربنا إنا سمعنا منادياً ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا) إلى قوله تعالى (إنك لا تخلف الميعاد) وقال تعالى (ومن أوفى بعهده من الله) فلا إشارة هنا إلى هذا بقرينة الحال وهي ما ذكر بعد في باقي الحديث من قوله تعالى ﴿ إذا ذكرني ﴾ إلى قوله ﴿ أتيت هرولة ﴾ حتى يفهم معاني تلك الألفاظ ويصدق بها حتى لا يدخل على المرء فيها شك ولا ريب فيعامل مولاه بحسب وتحقيق بما وعده ويتحقق أن ذلك فضل منه سبحانه على عباده وهو الغنى المستغنى ولأجل هذا قال صلى الله عليه وسلم « ما فضلكم أبو بكر بكثرة صوم ولا صلاة ولكن بشيء وقر في صدره » وقال عليه السلام في حديث تعليم الإيمان « أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » وقدر روى في الأسرئيليات أن أخوين كان أحدهما عابدا مشهورا بالتعبد والآخر مشهورا بضده

فماتنا معاً فأخبر موسى عليه السلام أن العابد منهما من أهل النار وأن المسرف منهما من أهل الجنة فتمجيب موسى عليه السلام وبنوا إسرائيل من ذلك ثم أن موسى عليه السلام بعث إلى امرأة العابد فسألها عن حاله فقالت لا أعرف منه إلا ماتت فوفون أتمم غير أنه كان إذا فرغ من تعبدته ودخل فراشه قال أفاجنا إن كان ما جاء به موسى حقاً فقال موسى عليه السلام من هذا أتى ثم سأل زوجة المسرف فقالت لا أعلم منه إلا مثل عليكم وليكنه كان إذا أفاق من نشوته مع آخر الليل يخرج إلى ساحة الدار ويقر لله بالوحدانية ولك بالرسالة ويكفي ويقول يا رب أي زاوية من زوايا جهنم تملأ هذا الجسد الخبيث فقال موسى عليه السلام بهذا سعاد أو كماروى (وأما قولنا) هل يريد بالذكر أن ذكره كيف كان أو يريد به الذكر بالأعمال اللفظي المحتمل ليكن الذي تدل عليه الأدلة الشرعية أن الذكر على نوعين ذكره مقطوع لذا ذكره هذا الخبر الذي في الحديث الذي نحن بسبيله وذكر ثانياً الأدلة فيه متعارضة منها ما يدل على أنه في جملة الذاكرين لقوله تعالى (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) وأدلة أخرى تمنع ذلك كقول مولانا سبحانه وتعالى لموسى عليه السلام (قر للظالمين لا يذكروني فاني آليت على نفسي أن من ذكرني ذكركم فاذا ذكروني ذكركم بالغضب) ولقول سيدنا صلي الله عليه وسلم في المصلي الذي لم تنه صلواته عن الفحشاء والمنكر لم يزد من الله إلا بعداً فكيف بالذكر وحده ولم يجعل عز وجل الذكر في كتابه إلا بعد تحقيق الآيمان بقوله تعالى (إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات إلى قوله تعالى والذاكرين الله كثير أو الذاكرات) فهذه مبينة لما نحن بسبيله وأما ذكره عز وجل بالأفعال فهو الأفضل ويكفي في ذكر ذلك قول عمر رضي الله عنه «ذكر الله عند أمره ونهيه خير من ذكره باللسان» إلا إن كان هذا العاصي ذكراً مولاه بخوف وخجل مما هو فيه فيرجى له فضل المولى مثل ما تقدم من ذكر أحد الأخوين المسرف على نفسه منهما ولقول مولانا سبحانه «أطلبوني عند المنكسرة قلوبهم من أجلي» (وأما قولنا) ما تأويل الصفات التي في الحديث من قبل مولانا سبحانه فهذه من التي لها تأويل غير ظاهرها ونحتاج أن نتكلم عليها واحدة واحدة أما قوله «وأنا معه إذا ذكرني» فمعناه إذا ذكرني فأنا معه بحسب ما قصد في ذكره فإن ذكرني بالتعظيم كنت معه بالانعام عليه والاحسان كقوله تعالى في كتابه (فاذكروني أذكركم) أي أرحمكم إذا ذكرتموني وقد قال تعالى (ولذكر الله أكبر) أي هو أكبر العبادات وإذا ذكرته في خوف ذكرك بالرحمة والخلوص مما خفته لقوله عز وجل (أمن يحجب المضطر إذا دعاه) ولقوله تعالى في الحديث القدسي «من شغلني ذكرني عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطى السائلين» لأن شغلك في خوفك واضطراك عن مسألتي سبحانه بذكره أوجب لك النجاة مما تخافه وكذلك فقس في كل الأمور تجده لا ينكسر فإن ذكرته عند وحشتك آتيتك بذكره وقد جاء عنه سبحانه أنه قال «أنا جالس من ذكرني» ولد لك لما أن دخل على بعض

المباركين وهو وحده وهو يذكر بتقيل له وحدك فقال لهم الآن أنا وحدي لأن هذه كلها دالة على ما قلناه أولاً من أن الظن يكون بمعنى العلم القطعي ومما يقويه أنه سئل بعض المباركين ما نلت من عبادتك قال الأنس بالله تعالى فقال له السائل حسبك فلم ينل منه الأنس إلا مع صدقه وتصديقه بما قيل له ووعد به وقد قال تعالى (ألا بذكر الله تطمئن القلوب) أي التي من الله سبحانه عليها بالعلم والعمل والحضور لأن صاحب القلب الغافل لسانه يذكر وقلبه فيما هو بسبيله يحول وكيف يجد هذا بذكر الله طمأنينة وأنا في ذلك وقد قال عليه السلام «إن الله لا ينظر إلى صوركم ولاكن ينظر إلى قلوبكم» وقوله «(فان ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي)» احتمل أن يكون هذا إشارة إلى فضيلة الذكر الخفي على الذكر الجلي لأن ما ينفرد به المولى سبحانه وحده بذاته الجالية أفضل مما سواه وقد جاء هذا نصاً منه صلى الله عليه وسلم بأن قال «الذكر الخفي يفضل الجلي بسبعين درجة» أو كما قال واحتمل أن يحمل على ظاهره فيكون المعنى أن الذي يذكر الله في نفسه من جملة ما أنعم الله عليه من أجل أن ذكره في نفسه أن مولاه سبحانه ذكره في نفسه أعني الله يجازيه على ذكره بثواب لا يطلع عليه غيره سبحانه وتعالى وإن ذكره في ملاء ذكره الله بجزء الثواب بحضرة الملاء الأعلى وشهادتهم وبه هنا بالأعلى مما من به على عبده على الأدنى فان ما سوى ذلك من الحسنات والخير هذا أعلا منه وقوله «(فان ذكرني في ملاء ذكرته في ملاء خير منهم)» أي في العالم العلوي فدل بهذا على تفضيل العالم العلوي على هذا العالم وسكنت عما له من الأجر في ذلك لأنه قد ثبت بالكتاب والسنة أن ذكر المولى سبحانه عبده رحمة له والآي فيه والأحاديث كثيرة «وفي هذا أعظم دليل» على أن المولى جل جلاله (ليس كمثل شيء) يؤخذ ذلك من قوله تعالى «(فان ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي وإن ذكرني في ملاء ذكرته في ملاء خير منهم)» وبالعلم القطعي أن في الزمان المفرد بذكره جل جلاله جمع كثير في أنفسهم في مشارق الأرض ومغاربها وفي ذلك الزمان نفسه يذكره تعالى جمع كثير بالجهر ولا يعلم قدرهم إلا هو سبحانه وهو عز وجل يذكر الجميع واحداً واحداً بحسب ذكره له من سر أو جهر مع ما هو سبحانه فيه من حمل جميع الموجودات بقدرته وحكمته على ما جرى فيهم سابق عليه هذا لاتحده العقول ولا تخيله الأذهان ولا يحده ولا يوصف جل جلاله وتقدس أسماؤه ومن أجل الإيمان بهذا وما يشبهه استفتح عليه السلام الحديث بقوله سبحانه «(أنا عند ظن عبدي بي)» وأما قوله تعالى «(وإن تقرب إلى شبرا تقرب إليه ذراعاً)» إلى آخر الحديث فهذا ليس على ظاهره بدليل أنك تجد ذلك من نفسك الذي أنت محدود متحيز على غير ظاهره فكيف في جانب من لا يحده ولا يكيف وإلا فأين الموضع الذي تقرب فيه من مولاك كشبر أو ذراع أو باع أو أي موضع يأتيه يمشي لأنه عز وجل ليس له جهة محدودة فيقرب من تلك الجهة بحسب هذه التوزيعات

فما بقي إلا التأويل من الجهتين ويكون المعنى في ذلك أنك مهما تقررت إلى مولاك بحجة من وجوده القرب فهو بفضلله يجازيك على ذلك بأكثر مما جئت به رقد بن عز وجل ذلك بقوله (من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها) وقد جاء أن الحسنة بعشر وجاء بسبعين وجاء بسبعائة وجاء بأكثر من ذلك بقوله تعالى (والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم) (وهنا بحث) في تبيين هذه الحالات من الشبر إلى المشى هل هذه الدرجات من جهة الأعمال المحسوسة أو من جهة النيات أو من مجوعهما احتمال والأظهر المجموع بدليل قوله سبحانه على لسان نبيه عليه السلام «لن يتقرب إلى المتقربون بأحب من أداء ما افترضت عليهم ثم لا يزال العبد يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فإذا أحبته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها » وجاء قوله صلى الله عليه وسلم « أوقع الله أجره على قدر نيته » بيان بهذا أن الأعمال في نفسها بعضها أقرب إلى الله تعالى من بعض ولذلك قال تعالى (يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب) وبأن أن حسن النية يزيد العمل رفعة وقربا إلى الله سبحانه ولذلك قال سبحانه (ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه) فما أثنى عز وجل عليهم إلا بحسن نياتهم وجعل قصدهم « و يترتب على هذا من الفقه » أن يكون للمرء اعتناء بترفع عمله بأن ينظر الأعلى فالأعلى في أعيان الأعمال وفي تحسين النية فيها ما يمكنه ولا يخلى قلبه من ذكر مولاه والشغل بما يقرب إليه لأن هذه هي الفائدة التي تترتب على معرفة هذا الحديث مع قوة اليقين وخالص الإيمان والصدق والتصديق الذي لا يخالطه شك ولا ريب وإلا كان الأمر عليه لاله جعلنا الله بمن هداه ووفقه لما يقربه إليه ونفعه به بمنه

(٢٩٣) (حديث الحث على قيام الليل)

عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طَرَقَهُ وَفَاطِمَةُ بَنَتْ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيْلَةً فَقَالَ لَهُمْ أَلَا تَصَلُّونَ قَالَ عَلِيٌّ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّمَا أَنْفُسُنَا بِيَدِ اللَّهِ فَإِذَا شَاءَ أَنْ يَبْعَثَنَا بَعَثَنَا فَانْصَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ قُلْتُ لَكَ ذَلِكَ وَلَمْ يَرْجِعْ إِلَى شَيْءٍ ثُمَّ سَمِعْتُهُ وَهُوَ مَدِيرٌ يَضْرِبُ فَيَخْذُ وَيَقُولُ (وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا)

ظاهر الحديث يدل على ثلاثة أحكام (أحدها) الحث على قيام الليل (والثاني) أن استيقاظ النائمين إنما هو بيد الله تعالى لا عمل فيه للخلق (والثالث) أن الجواب بالقدر على الحكمة ليس من طريق التكليف والقصد أن يكون الجواب على الحكمة بمقتضى الحكمة وعلى القدرة بمقتضى القدرة والكلام عليه من وجوه

﴿ منها ﴾ جواز المشى بالليل إلى دور القراة وذوى الأرحام يؤخذ ذلك من قوله ﴿ طرقة وفاطمة ليلة ﴾ لأن كل ما يأتى بالليل يقال له طارق وكذلك بالنهار ولذلك كان من دعائه صلى الله عليه وسلم أنه كان يستعيز من « طوارق الليل والنهار إلا طارقاً يطرق بخير » (١) ﴿ وفيه دليل ﴾ على أنه إذا تكلم العالم بمقتضى الحكمة وكان ذلك في غير واجب فوق الجواب على ذلك بالقدرة أن ذلك كافٍ في الجواب ويقطع البحث يؤخذ ذلك من أنه لما طالبهم سيدنا صلى الله عليه وسلم بأثر الحكمة وهو قيام الليل وجاوبه على رضى الله عنه بأثر القدرة وهو إخباره بقوله ﴿ إنما أنفسنا بيد الله فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا ﴾ فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال له ذلك ولم يراجعه بشيء ﴿ وفيه دليل ﴾ على أن الرجل إذا كان الخطاب له ولأهله هو أولى بالجواب يؤخذ ذلك من خطاب سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم لبنته ولعل صلوات الله عليه ورضى الله عنهم أجمعين فجاء به على رضى الله عنه وسلم له رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك بانصرافه من حينه ولم يقل له شيئاً ﴿ وفيه دليل ﴾ على جواز محادثة الشخص نفسه بأمر الغير يؤخذ ذلك من قول سيدنا صلى الله عليه وسلم بعدما ولى عنهم وهو وحده ﴿ وكان الإنسان أكثر شىء جدلاً ﴾ ﴿ وفيه دليل ﴾ على جواز ضرب المرأة بعض أعضائه ببعض على أمر يتعجب أو يعلم به غيره إشعاراً له أنه ما رأى منه لم يرافقه ولا يعجبه يؤخذ ذلك من ضربه صلى الله عليه وسلم فخذه بعدما ولى عنهم وكلامه إذا ذاك بقوله (وكان الإنسان أكثر شىء جدلاً) لأن يعلمهم أن ذلك الجواب لم يرتضه منهم ﴿ وهنا بحث ﴾ وهو أن يقال لم يقل لهم ذلك مشافهة ﴿ فالجواب ﴾ أنه لما علم سيدنا صلى الله عليه وسلم أن علياً رضى الله عنه لا يجمل أن الجواب بالقدرة عن الحكمة أنه ليس من الحكمة فاحتمل إن كان لهما عذر يمنعهما من الصلاة واستحى أن يذكره للنبي صلى الله عليه وسلم ولا يمكنه عدم الجواب له فدفع الخجل عن نفسه وعن أهله بذكر القدرة ولذلك الامكان ولى النبي صلى الله عليه وسلم عنهم مسرعاً من أجل أن لا يشغلهم عن أخذ الأهمية للصلاة واحتمل أن يكون ذلك من على رضى الله عنه استدعاء جواب من النبي صلى الله عليه وسلم لا يزيده فائدة فكان ضرب فخذه صلى الله عليه وسلم وهو مولى وكلامه بما به تكلم جواباً على رضى الله عنه لأن يحقق عنده الأمر على

(١) عن يحيى بن سعيد أنه قال لما أسرى برسول الله صلى الله عليه وسلم فرأى عفرتين من الجن يطلبه بشعلة من نار كلما النفث رسول الله صلى الله عليه وسلم رآه فقال له جبريل أفلا أعليك كلمات تقولن إذا قلتن طفئت شعلته وخر لفيه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بلى فقال جبريل فقل ﴿ أعوذ بوجه الله الكريم وبكلمات الله التامات اللاتي لا يجاوزهن بر ولا فاجر من شر ما ينزل من السماء وشر ما يخرج فيها وشر ما ذرأ في الأرض وشر ما يخرج منها ومن فتن الليل والنهار ومن طوارق الليل والنهار إلا طارقاً يطرق بخير يا رحمان ﴾ رواه إمام الأئمة في موطنه والنسائي في سنته والبيهقي في الأسماء والصفات

ما هو عليه وأن العبودية شأنها أن لا يطلب لنفسها عذر مع الشريعة أبدا إلا الاعتراف بالتقصير والأخذ بالاستغفار والاعتذار ((وفيه دليل)) على فضل على رضى الله عنه يؤخذ ذلك من روايته لهذا الحديث وقد سبق لفهم من لا يعرف قدره ما يحتمل الحديث من العتب عليه وحاشاء من ذلك فلما كان الاخبار به مما يترتب عليه في الدين فوائد لم يبال بشيء من ذلك ((وفيه إشارة)) إلى أن من حقيقة الصحبة والقراءة التذكار عند الغفلة يؤخذ ذلك من كون سيدنا صلى الله عليه وسلم لم يتركهم ليلا إلا لينكرهم بالصلاة لأن الليل وقت غفلة وإن كان حالهم جميعا لا يقتضى غفلة لكن في زمان الغفلة ينبغي أن يلتفت فيه إلى حال القراءة والاخوان وهذا من السنة وإن كانوا لا يغفلون غالبا لكن ذلك الخوف ما طبعته عليه البشرية ((وفيه إشارة)) إلى الالتفات إلى الأصل وإن كان الظاهر خلافه لأن الأصل من الغفلة وأشباهاها والتوفيق والتزكية فضل رباني (ولو لا فضل الله عليكم ورحمته ما زكي منكم من أحد أبدا) فيذبح على هذا أن يتفقد المرء نفسه وأجابه بتذكار الخير والعون عليه وإن كان سبحانه قد من عليهم بذلك لكن ذلك من أجل ما ذكرناه ولكي يحصل فضل آخر وهو دخولهم بذلك تحت حد قوله عز وجل وتعاونوا على البر والتقوى) وكذلك كانت سنة سيدنا صلى الله عليه وسلم يتفقد الصحابة رضى الله عنهم بالموعظة في بعض الأيام وهم على ما هم عليه من قوة الإيمان وكانوا يودون أن لو كان ذلك كل يوم فقال لهم « ما يمنعني من ذلك إلا خوف السائمة والمال عليكم » فبهذا هم اقتده جعلنا الله ممن اهتدى بهديهم بمنه

(٢٩٤) ((حديث اذا احب الله عبدا أمر جبريل بأن يحبه))

عن أبي هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله تبارك وتعالى إذا احب عبدا نادى جبريل عليه السلام إن الله قد احب فلانا فاحبه فيحبه جبريل ثم ينادى جبريل في السماء ان الله قد احب فلانا فاحبوه فيحبه اهل السماء ويوضع له القبول في اهل الأرض ظهر الحديث يدل على أن الله عز وجل إذا احب عبدا خلع عليه خلع العناية فيأمر جبريل عليه السلام بأن يحبه ثم ينادى جبريل في أهل السماء يحب الله عبده ويأمرهم بحب ذلك العبد المحبوب عند مولاه ويضع له في أهل الأرض القبول والكلام عليه من وجوه

((منها)) أن يقال ما معنى حب الله تعالى للعبد وما معنى حب جبريل عليه السلام له وحب الملائكة وما معنى القبول ((فأما قولنا)) ما معنى حب الله لعبده فقد تقدم الكلام على هذا المعنى وما يشبهه أن حقيقة الحب من الله لعبده ليس كحب العبيد بعضهم لبعض بالولوع به والانس به وميل القلب إليه وإتسا معناه رضاه حاله وما هو عليه وكثرة إحسانه لقوله عز وجل (يحبهم

ويحبونه) أى يحبهم فيحسن إليهم على حبهم له فلكثرة الاحسان منه عز وجل - بر عليه السلام عنه بالحُب لأنه مما عرفنا بيننا أن كثرة الاحسان منا بعضنا لبعض إنما بساطه الحُب من المحسن الذى إليه الاحسان ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « حُبك الشيء يعنى ويهمى أى يعصيك عما سواه وكذلك يصمك عما سواه فلا تسكاد ترى ولا تبصر إلا هو ويعصيك أيضا عن عيوبه وهذه صفة المحسنين وهى فى حق المولى جل جلاله مستحيلة وفى تعبيره عليه السلام عن كثرة الاحسان بالحُب تأييد للعباد وإدخال مسرة عليهم لأن العباد إذا سمع عن مولاه أنه يحبه هو أعلا السرور عنده وتحقق بكل خير ونعمة زائدة على ذلك وهذا الخطاب إنما هو لمن فى طبعه فتوة ومروءة وعروبة وفضيلة وخير وإنابة ولذلك قال عز وجل (وما يتذكر إلا من يغبى) ومن فى نفسه شراهية ورعونة وله شهوة غالبة فلا يردعه إلا الضرب والزجر والتعصيت ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « يتزعج الله بالسلطان ما لا يتزعج بالقرآن » لأن السلطان هو الذى جعل له الزجر والتعصيت بالضرب والقتل وغير ذلك (وأما قولنا) ما معنى حُب جبريل عليه السلام فهو يحتمل وجهين أن يكون حُب ولوع بالشخص بخلقه الله فيه عند أمره له بحُب العبد ويكون من جملة فوائد حبه له أن يكون بوالهية ويدعو له بالخير كما جاء « إن الملائكة تحب صاحب العلم الذى هو لله وترغب فى صحبته وتدعوا له بأجنحتهم تمسحه » وقد يحتمل أن يكون معنى حبه له ترفعته وتكرمه لكونه له عند الله تعالى مكانة حسنة لأن العبيد فى الحُب والبغض للمولى متبعون وكذلك فى الغضب والرحمة للمولى متبعون أيضا ولذلك جاء فى حق الزبانية أنه « إذا أمر الله عز وجل بالمجرمين أن يقتلوا فى النار فأتخذهم الزبانية فيتمنقون فى أيديهم فيقولون لهم ألا ترحمونا فيقولون لهم إذا كان أرحم الراحمين لم يرحمكم فكيف نرحمكم نحن » أو كما ورد فالعبيد كلهم أهل العالم العلوى والسفلى تابعون لما به يؤمرون إما بالمقال وإما بالوضع ولذلك لم يشغل أهل العقول الوافرة إلا بالعمل على رضى مولاهم ولم يبالوا بغيره حتى أن من كلام بعضهم فياليت ما بيني وبينك عامر وبينى وبين العالمين خراب

ومثل الجواب عن حُب جبريل عليه السلام الجواب على حُب الملائكة عليهم السلام بالمواصلة السكن فى تقديم الأمر لجبريل عليه السلام قبل غيره من الملائكة لإظهار لترفع منزلته عند الله تعالى على غيره من الملائكة (وأما قولنا) ما معنى القبول احتمل أن يكون على ظاهره وهو معنى الترفع له والاكرام يقال أقبل فلان على فلان إذا أكرمه ورحب به وقد جاء من طريق آخر فى حديث غير هذا « ووضع حبه على الماء » فعلى هذا يكون جميع من فى الأرض من إنس وجن وملائكة وقد جاء أن « مامن موضع شبر فى السماء إلا وهلك واضع جبهته فيها ساجدا لله تعالى » أو كما ورد (١) « وما من حيوان (١) ولفظ الحديث قال رسول الله ﷺ « إني أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون أظن السماء وحق لها أن تظن ما فيها موضع أربع أصابع إلا والله ملك واضع جبهته ساجدا لله والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا وما لتذتم بالنساء على الفرس ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله » رواه الترمذى فى جامعه عن أنس بن مالك رضى الله تعالى عنه وأدرج فيه « لوددت أنى كنت شجرة تعضد على ما اختاره القاضى عياض فى شفاة خلافا لابي بكر بن العري فى العارضة

على اختلافهم إلا يقبل عليه ، وقد جاء ما يفسر هذا في حق صاحب العلم الذي هو الله أنه يستغفر له كل شيء في الأرض حتى الطير في الهوى والحوث في البحر وهواه وجميع الأنعام وحشرات الأرض وشجرها ومدرها وكل ما فيها هؤلاء كآلهم يدخلون تحت قوله هنا أهل الأرض أى كل ما فيها فانه إذا جمع من يعقل مع من لا يعقل يجمع بلفظ من يعقل فقد يكون معنى ما ذكرناه في حق العلم الذي هو الله فان هذه المنزلة أرفع المنازل عند الله تعالى لأن هؤلاء السادة هم «ورثة الأنبياء» (١) عليهم السلام ويكونون في غير العالم في غير أهل جنسه وهو تفسير القول الذي يوضع له في الأرض وقد ذكر الامام بن بن رزق رحمه الله أن الله تعالى لا يزال بعبد الصالح حتى يحبه لعباده و يلقى خوفه في قلوبهم ويسهل عليه مآلته ويرزقه خلاواتها ويشهد لقول هذا الامام هذا الحديث الذي نحن بسبيله مع قوله صلى الله عليه وسلم « من خاف الله خوف الله منه كل شيء » فإذا جمع الله في قلوب عباده الحب والخوف جاء ما قاله الامام سواء بسواء فلا يكون في هذه المنزلة إلا وقد خفت الطاعة عليه وأنس بها فيحصل له من ميراث « أرحنا بها يا بلال » نسبة الصديق الاتباع والتصديق فيا مبصر نشر رياح المحبوبين هذه ثمرة أغصان فؤادك هل تجد من تلك الرياح نسمة تنعش بها أسماع قلوب المشتاقين ولو نسمة ما يرتاحون إليها كان بعض أهل الصديق والتصديق والتوفيق إذا كان عند انشقاق الفجر وهو تحت السقف بين الجدران يقول لمن حضره قد طلع الفجر فيخرجون فيبصرون الفجر كما انشقرت رق جوه لأنه جاء «إذا كان عند السحر يرسل الله عز وجل من تحت العرش ريحا عطرة تنور وجه كل من كان يقظانا في طاعة هؤلاء ، ويؤخذ بقوة الكلام من مفهوم هذا الحديث الذنب على توفيق أفعال البر على اختلاف أنواعها من فرض ومنة وندب إلى غير ذلك من أنواعه إذ أن بذلك يحصل للعبد بفضل الله هذه المنزلة الرفيعة ويفهم منه أيضا كثرة الحذر وشدة النهي عن المعاصي والبدع التي يجرم العبد هذه المنزلة الجميلة فمن فهم آداب لما هفت القلوب تلهجوا روائح القرب وإن كشفت حجب الجدران عللا قاي بذكراهم فالقلب لهم والله مشتاق

(١) روى الترمذى في سننه عن محمود بن خدّاش البغدادى قال حدثنا محمد بن يزيد الواسطى حدثنا عاصم ابن رجاء بن حيوث عن قيس بن كثير قال قدم رجل من أهل المدينة على أبي الدرداء رضى الله عنه وهو بدمشق فقال ما قدمك يا اخي فقال حديث باغنى انك تحدثه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اما جئت حاجة قال لا قال اما قدمت لتجارة قال لا قال اما جئت إلا في طلب هذا الحديث قال فاني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « من سلك طريقا يتبعني فيه علما سلك الله له طريقا إلى الجنة وان الملائكة لتضع أجنحتها رضاء لطالب العلم وان العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض حتى الحيتان في الماء وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب ان العلماء ورثة الانبياء ان الانبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما انما ورثوا العلم فمن اخذ به اخذ بحظ وافر ، وهذا في العلماء العاملين الذين يريدون بعلمهم ما عند الله تعالى كما سيأتى للشارح مصلحه عن الله عنه

(٢٩٥)

﴿حديث أمر الله تعالى للحفظة بكتيب حسنات العبد وسبائنه﴾

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يقول الله تبارك وتعالى إذا أراد عبدى أن يعمل سيئة فلا تكتبوها عليه حتى يعملها فإن عملها فأتكتبوها بمثلها وإن تركها من أجلى فأتكتبوها له حسنة وإذا أراد أن يعمل حسنة فلم يعملها فأتكتبوها له حسنة فإن عملها فأتكتبوها بعشر أمثالها إلى سبعمائة

ظاهر الحديث يدل على ثلاثة أحكام (أحدها) أمر الله سبحانه ملائكته أن العبد من نبي آدم إذا أراد أن يعمل سيئة فلا يكتبونها عليه حتى يعملها فإذا عملها يكتبونها بمثلها (والحكم الثاني) أمره تعالى للملائكة أن العبد إذا أراد فعل سيئة فتركها من أجل الله تعالى يكتبون له بها حسنة (والثالث) أمره تعالى إذا أراد العبد أن يعمل حسنة فلم يعملها يكتبونها له حسنة واحدة فإن عملها كتبوها له بعشر أمثالها حتى إلى سبعمائة مثلها والكلام عليه من وجوه

﴿منها﴾ أن يقال هل العبد على العموم في المؤمن وغيره ومن المأمورون بذلك ومن أين تعلم الملائكة ما في قلب هذا العبد وهذا من باب علم الغيب ولا يعلمه إلا الله عز وجل وكيفية الترتيب من أجله سبحانه وقوله ﴿فأتكتبوها بعشر أمثالها إلى سبعمائة﴾ هل هذه التفرقة بين الأجور تعبد لا يعقل له معنى أو يعرف سببه وهل يزداد على السبعمائة أولا ﴿أما قولنا﴾ هل هذا على العموم في جميع العباد اللفظ محتمل لكن يخصه ما يعلم من قواعد الشريعة فإن الله عز وجل يقول (والعمل الصالح يرفعه) أى أن كلمة الاخلاص هى التى يرفع بها العمل الصالح ومن ليس من أهلها فلا يقبل منه عمل هذا على قول من يقول أنهم مخاطبون بفروع الشريعة وعلى قول بأنهم مخاطبون بفروع الشريعة فلا يدخلون تحت هذا الحد وقد جاء فى بعض الآثار «عبدى المؤمن» فارتفع بهذا النص الاحتمال الذى فى اللفظ ﴿وأما قولنا﴾ من المأمورون بالكتيب فقد نص عليهم الكتاب والسنة أما الكتاب فقوله عز وجل (وإن عليكم لحافظين كراما كاتبين يعلمون ما تفعلون) وأما السنة فقوله عليه السلام «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ويجتمعون فى صلاة العصر وصلاة الفجر ثم يعرج الذين باتوا فيكم» الحديث رواه الأئمة ﴿وفى هذا تنبيه﴾ لك لعلك تستحى من مباشرتهم لك وقعودهم معك فتسكف عما فيه هلاكك من سوء عمالك وأنت مع عمالك بهذا معرض كأنك لا تعلم إن من العلم الجهلا ﴿وأما قولنا﴾ من أين تعلم الملائكة ما فى قلب العبد فقد جاء «إن الله عز وجل أجرى لهم عادة إذا أراد العبد أن يعمل سيئة يخرج على فيه رائحة وتذنه فيعلم الملك أنه قد هم بسيئة فلا يكتبها حتى يفعلها وإذا أراد أن يعمل حسنة يخرج على فيه رائحة حسنة فيعلم الملك أنه أراد أن يعمل حسنة فيكتبها له حسنة كما هو مذكور فى الحديث «أو كما قال عليه

السلام « لا حيا الله أختالبطالة عطر ريشه بالمسك والطيب وقد طبق الأفاق ثلث فمه وجوارحه »
هلا عبرت هذه الحالة بطيب (ونهى النفس عن الهوى) « وأما كيفية التركى الذى هو الله فكيفيته أن
لا يردده عن تلك السيئة التى أراد فعلها إلا خوف الله تعالى من أجل عقابه أو حياء منه لأنه أهل أن
يستحيا منه أو طمع فى وعده الجليل وهو قوله الحق (ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هى المأوى)
كما ذكر عن أصحاب الغار وهو أنه كان فى غار ثلاث أناس فنزلت على بابهم صخرة عظيمة سدته
فقالوا ما ينجينا من هذا إلا أن يدعو كل واحد منا بخير عمل عمله خالصا لله تعالى فدعى أحدهم وسعى عمله
الذى أخلص فيه لله فتمرج من تلك الصخرة بعضها ثم الثانى فعل مثل صاحبه فتمرج بدعائه من
الصخرة مثل ما انفرج بدعاء صاحبه ثم الثالث قال فى دعائه اللهم إنك تعلم أنى أحببت امرأة وراودتها
عن نفسها فأبى حتى أدفع لها مائة دينار فلما دفعت لها المائة دينار أمكننى من نفسها فلما قعدت
بين شعبيها قالت لى اتق الله ولا تفض الخاتم إلا بحقه فاستحييت منك وتركت لها المائة دينار فان
كنت تعلم أنى فعلت ذلك خوفا منك وحياء ففرج عنا ما بقى علينا من هذه الصخرة فانفرجت عنهم من
جنبها وخرجوا من الغار » أو كما ورد وقد جاء « إن الله عز وجل جعل ملك اليمين يكتب الحسنات
وملك الشمال يكتب السيئات وأن ملك اليمين مقدم على ملك الشمال وحاكم عليه فإذا فعل
العبد السيئة وأراد ملك الشمال أن يكتبها قال له ملك اليمين اصبر عليه لعله يستغفر أو يتوب »
فان تاب أو استغفر لم يكتب عليه شيئا وإن فعل حسنة خاصة منها بقدر السيئة وكتب باقى آخره
فان لم يفعل شيئا من ذلك فحينئذ يكتبها عليه كما فعل بغير زيادة على ذلك « وفى هذا أتم دليل »
على عظم لطف المولى بعباده المؤمنين وكثرة رحمته لهم وقوله « اكتبوها له بعشر أمثالها إلى سبعمائة »
هل هذا تعبد لا يعرف له معنى يعطى الله من شاء ما شاء وذلك لسبب يعلم ظاهر اللفظ محتمل لسكن
يظهر ذلك من غير هذا الموضع وهو قوله صلى الله عليه وسلم « أوقع الله أجره على قدر نيته »
وقد يكون مع حسن النية زيادة أسباب من الخير فى الحسنة نفسها توجب لصاحبها التضعيف فى
الأجور مثل ما جاء « أن الذى يقرأ القرآن له بكل حرف عشر حسنات وأن الذى يقرؤه ويعلم
لم يخفض ورفع له بكل حرف مائة حسنة » وقد جاء « أن الذى يقرأ القرآن وهو قائم فى الصلاة له بكل
حرف مائة حسنة وإن كان قاعدا خمسون وإن كان فى غير الصلاة وهو على طهارة خمسة
وعشرون وإن كان على غير طهارة عشرة » أو كما ورد والله يوفق من يشاء إلى أسباب الزيادة فى أجور
حسناته فضلا من الله ومنه « وأما قولنا » هل السبعمائة هى الحد لا يزداد عليها أولا لفظ الحديث
ليس فيه ما يدل على الزيادة ولا يمنعها سكن الكتاب العزيز أخبرنا بالزيادة على ذلك بقوله عز وجل
(مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبل مائة حبة والله
يضاعف لمن يشاء) وبقوله عز وجل (إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب) لحسابك من كريم ملى
(ليس كمثل شيء يعطى من يشاء بغير حساب) هل يدخل ذلك فيما تحده العقول ويترتب من الفائدة

على العلم بهذا الحديث وجوه منها قوة الرجاء في الله تعالى الذي قد بسطنا ظل فضله بهذا القدر من إظهاره واعتناؤه بالمسيء منا وبالحسن وتضاعف الحب والتكريم لمن جعل لنا وسيلة إلى العلم بهذا الخير العظيم صلى الله عليه وسلم والنظر في الأسباب التي بها تزكوا أعمالنا والأخذ فيما به يكفر خطايانا ولذلك قال صلى الله عليه وسلم «ويل لمن غلبت أحاده عشراته» لأن السيئة واحدة كمانص الحديث وأقل مراتب الحسنة عشر فتعسا لنافل يقترب عشر سيئات ثم لا يقدر أن يعمل حسنة واحدة تكفر عنه تلك العشر السيئات والويل واد في جهنم ﴿تنبه﴾ فإن سمعته ولم تنتفع أو علمت ولم تعمل كنت كاللحمار يحمل أسفارا أو ياليتها أسفارا بل جبال تنكبه في النار أذاذن الله من ذلك بفضلته

(٢٩٦) حديث حسن ظن العبد بربه يوجب له ماأمله فيه ﴿

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى أَنَا عِنْدَ

ظَنِّ عَبْدِي بِي

ظاهر الحديث يدل على أن الله عز وجل مع عبده على قدر ظنه والكلام عليه من وجوه ﴿منها﴾ أن يقال هل هذا عام في جنس العبيد كإمامهم ومؤمنهم وكأفرهم وأرهم وخص بالموهين الظاهر أنه عام في كل العبيد لأن الكل عبيد لله عز وجل وهل الظن هنا على بابه أو هو بمعنى العلم هذا يحتاج إلى تقسيم إما أن يكون يريد بالظن ما هو راجع إلى العلم به جل جلاله وإلى أمور الآخرة وما فيها من رحمته عز وجل وعقابه وما في معناه أو إلى أمور هذه الدار وما أجرى عز وجل فيها من خيراته وإحسانه لعباده وما فيها أيضا من نقمه وابتلائه أو راجع إلى ما كلف سبحانه عباده من طاعته واتباع رسله صلوات الله عليهم وما وعدتهم به الرسل عنه تعالى وما بشرتهم به من الشفاء من الآلام والأمور المخوفة بأيسر الأشياء مثل الإرشاد إلى الثقة به عز وجل والتوكل عليه وكيف حال من فعل ذلك وصدقه والعامل عليه وما في معناه فالموضع يدل على كل نوع من هذا أو ما في معناه بوجوه عديدة إذا تبعتها لاسكنها كلها مندرجة تحت هذه التنويغات ليس تخرج عنها فالذي راجع منها إلى العلم به جل جلاله فيجزى فيه الوجهين أن يكون بمعنى العلم وأن يكون على بابه وهو الظن فأهل العلم به جل جلاله هو معهم لكل واحد منهم على قدر علمه به جل جلاله وهنا تقسيم التقييمات التي تقدم ذكرها في الكتاب على علم العوام وعلم الخواص وعلم خواص الخواص وكل منهم يمجده سبحانه على قدر علمه به وقد تقدم في هذا ما فيه شفاء وما قد ذكرنا فيه أن بعض من علمه جل جلاله بأوصاف الجلال والكمال ونفى الشبه والمثال رأى من أمور الغيب ما أخجله فهرع وقال أين لي هذا فقليل له عملت على الحق فأريت الحقيقة وعملوا على التأويل فعملوا بحسب ما عملوا وأما أهل الجحده أو الجهل بجلاله وتنزيهه وهم الكفار على اختلاف مراتبهم والمنافقون فليس يمجدهونه هناك بل هم محجوبون عنه جل جلاله لقوله تعالى (كلا إنهم عن ربهم

يومئذ المحجوبون) وليس لهم مولى حتى يحدون منه هناك رحمة (ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم) وهم كما قال الله تعالى (الظالين بالله ظن السوء عليهم دائرة السوء وغضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم جهنم وساءت مصيرا) وأما أهل الشك وهم أهل الظنون به سبحانه بلا قطع لأحد الجهات فهم من جنس الكفار لأن الشك يجري مجرى الكفر (وذلك ظنكم الذي ظننتم بربكم أردبكم فأصبحتم من الخاسرين) وإن كان فيما هو راجع إلى الآخرة فإن كان من جهة التصديق بها أو بما فيها فتمشى على تقسيم الايمان به عز وجل فإن من شروط الايمان به عز وجل التصديق بالآخرة وبما فيها وذلك من أوصاف المؤمنين كقوله عز وجل (وبالآخرة هم بوقنون) فإن كان على الرجاء في فضله عز وجل أن ينجيهم من عذابها ويمن عليهم بنعيمها فهناك يكون الظن بمعنى الرجاء والخوف لكن لا يتخاوا أن يكون الخوف والرجاء لما هناك مع الأعمال المأمور بها أو مع عدمها فإن كان مع عدمها فلا يسمى ذلك رجاء بل يسميه أهل العلم غورا وذلك مظنة الهلاك وقد تقدم من البيان فيه بفضل الله ما فيه شفاء وكفى في ذلك قوله تعالى (إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل أولئك يرجون رحمة الله) وإن كان مع امتثال الأمر واجتناب التنبه فذلك الذي يدخل تحت معنى هذا الحديث وكل على قدر حاله من حال العوام والخصوص وخصوص الخصوص لأن الله عز وجل يقول (ويزيدهم من فضله) فدرجهم عز وجل إلى الطمع فيه وفي فضله على غير عوض فظن كل واحد هنا على قدر عليه به سبحانه فإن كان راجعا إلى هذه الدار وما فيها من نعمه سبحانه وأرزاقه فهنا كل يجده حيث أمله إذا كان مقرا وإن كان من غير المؤمنين لأنه جل جلاله قال مجابوا للخليل عليه السلام حين قال (رب اجعل هذا البلد آمنا وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر) قال جل جلاله (ومن كفر فأمتعه قليلا ثم أضطره إلى عذاب النار) معناه أرزق من آمن وارزق من كفر ثم الكافر أسوقه إلى النار وقد ذكر أن ناسا سافروا في برية ليس يوجد الماء فيها إلا قليلا فلحقهم العطش حتى مات أكثرهم وكان فيهم ذمي وكان البحر المالح قريبا منه فأتى البحر ورفع بصره إلى السماء وقال إن كنت لا ترضى بدينى فانك تعلم اضطرارى فلا تهلكنى وغرف من ماء البحر فوجده عذبا فشرب حتى روى وإن كان ممن لا يعرفه فهو سبحانه ينعم عليه بمقتضى قوله (ومن كفر) وإن كان من المؤمنين فهنا تتسع الدائرة فاب مقاعد المؤمنين في هذه الدار وما فيها كل على حسب همته وحاله من عوام وخصوص ولذلك قال أهل التحقيق عدد الطرق إلى الله تعالى على عدد أنفاس الخلائق معناه أن لكل واحد منهم طريقا يخصه كأن صفاتهم في حواسهم الظاهرة واحدة ولكل واحد فيها صفة تخصه يمتاز بها زيد عن عمرو وبكر عن خالد حكمة حكيم وإن كان الظن هنا راجعا إلى ما كلفوا من عبادته عز وجل واتباع رسله وما به وعدتهم الرسل صلوات الله عليهم وما يشرهم عن مولاهم من وجوه الخير على نحو ما تقدم ذكره في الأحاديث المتقدمة وفي الكتاب والسنة ومثل ما حد لهم في بعض الأشياء من الشفاء من

الأمور الموهولة والمهاككة بأيسر شيء مثل ما تقدم في أحاديث الكتاب الذي نحن بسبيله ومثل إرشادهم إلى التوكل على مولاهم وقوة الثقة به سبحانه وما في معناه فهذا خاص بالمؤمنين وهم في ذلك كل على قدر همهم وقوة إيمانهم وحسن تصديقهم وغلبة ظنهم الجميل بمولاهم الجليل والنظر إلى قوله تعالى وهو أصدق القائلين (ومن أصدق من الله حديثاً ومن أصدق من الله قيلاً ومن أوفى بعهده من الله فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون) وقوة عزهم على حمل النفوس على العمل بالصدق والتصديق ولذلك قال أهل العلم والعمل من صدق وصدق قرب لا محالة والضعفاء منهم على حالهم كل منهم على قدر ضعفه وتلوته وكثرة ويله وترجيح العساة على القدرة ويجعل ذلك بتأويله شرعاً كل على قدر حاله وإذا نظرنا إلى ما قدمناه من الكلام تجد كل نوع من هؤلاء قد بيناه والحمد لله بما فيه كفاية إن نظره وهدى إلى العمل بحسب الطريق الراجحة منه في بعض هذه الأمور يكون الظن بمعنى العلم مثل ما ترجع إلى الطاعات والأمر والنهي فيكون الظن فيها وفيما هو في معناها بمعنى العلم لأن ذلك من كمال الإيمان وما هو منها مثل البشائر وما جعل لهم من الشفاء من الأمور المخوفة والمهاككة بالأشياء اليسيرة فذلك وما في معناه راجع إلى أن يكون الظن فيه على بابه فمضى كان ظنه هناك قويا وجد ما قيل له وزيادة ومتى كان ظنه ضعيفا كان بحسب حاله في ذلك يجده ومن وقع له بذلك تكذيب فذلك يلحق بالكافرين إلا أن يتوب ويرجع كما قال جل جلاله (ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً) لأن الظالم لنفسه هو المكذب به والشاك فيه والذي يفعل شيئاً من ذلك على تجربة يعود ذلك كله على صاحبه بالخسارة وقد بينا ذلك في ما تقدم من الكتاب وذكرنا في بعض المواضع فعل ابن عباس حين تطلع له الدماميل ويطلبها بالعسل ويتلوا الآية في ذلك أو كما ورد قوله صلى الله عليه وسلم في الذي سقى أخاه العسل «صدق الله وكذب بطن أخيك» وفعل ابن عمر حين كان يرمد ويكتحل بالعسل أيضاً ويتلوا الآية في ذلك أو كما ورد وما كان من بعض المشايخ في الشونين والكلام عليه في حديثه المختص به من الكتاب وكذلك كل ما أشرنا إليه هنا قد تقدم الكلام عليه في موضعه من الكتاب بفضل الله وبقي في هذا الحديث أن ينظر ما فيه من الإيجاز لفظة واحدة جاءت جامعة لإداني السنة كلها أعني في الاعتقاد فيما يقع له في كل عمل فما من عمل إلا والنية منسحبة عليه كانت النية حسنة أو رديئة فالله تعالى يجازيه بحسب نيته في عمله وذلك هو الظاهر المراد في الحديث ويدل أيضاً على عظمة الله تعالى وعظم قدرته وعلى جلال صفاته يؤخذ ذلك من قوله ((أنا عند ظن عبدي بي)) فإذا كان مع جميع العبيد على كثرتهم مع كل واحد واحد منفرداً بحسب ظنه به في الزمن الفرد وهذا جار على ممر الدهور والأيام وكذلك الانقاس لأن قلب ابن آدم أشد تقلباً من القدر إذا اجتمعت غلباً فكل تقلب من تقلبات قلوب الجميع هو عز وجل معهم على ما يكونون عليه هذا يدل على أنه تعالى (ليس كمثله شيء) ولا

يدرك بالعقل ولا يحد بالأذهان ولا يخطر بالآوهام موجود حقا (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) وإذا تأملت معنى ما أشرنا إليه هنا بتوفيق الله تعالى تجتمع لك الشريعة والحقيقة وحسن العقيدة وصالح الايمان وجميع خبر الدنيا والآخرة ويشعرك بكل ما خاف ما ذكرناه جعلنا الله بمن فهمه ذلك وجعله من أهله بفضله لا رب سواه

(٢٩٧) (حديث خطاب الله تعالى لأهل الجنة ورضائه عنهم)

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الله سبحانه وتعالى يقول لأهل الجنة يا أهل الجنة فيقولون لبيك ربنا وسعديك والخير كله في يديك فيقول هل رضيتم فيقولون وما لنا لا نرضى يا ربنا وقد أعطينا ما لم تعط أحدا من خلقك فيقول ألا أعطيكم أفضل من ذلك فيقولون يا ربنا وأي شيء أفضل من ذلك فيقول أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبدا

ظاهر الحديث يدل على أن فضل نعيم الآخرة دوام رضي المولى سبحانه عن عبيد المؤمنين أهل دار كرامته والكلام عليه من وجوه

(منها) إثبات كلام الله سبحانه بذاته الجليلة لأهل الجنة يؤخذ ذلك من قوله ((إن الله سبحانه يقول)) فدل بقول سبحانه أنه عز وجل المخاطب لهم ثم بقية أخرى وهي جواب أهل الجنة بقولهم ((لبيك ربنا وسعديك والخير كله في يديك)) وبقولهم أيضا ((وما لنا لا نرضى يا رب)) وبقولهم ((وقد أعطينا ما لم تعط أحدا من خلقك)) وبقوله سبحانه ((ألا أعطيكم أفضل من ذلك)) وبقولهم ((ربنا وأي شيء أفضل من ذلك)) وبقوله سبحانه ((أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبدا)) فهذه كلها دلائل على أنه عز وجل هو المتكلم معهم بذاته الجليلة ((وفيه دليل)) على ما تقدم أول الكتاب من مذهب أهل السنة في كتابه العزيز أنه كلامه القديم الأزلي ميسر بلغة العرب وأن النظر في السلفية في ذلك ممنوع ولا نقول بالحلول في المحدث التي هي الحروف والأصوات ولا نقول إنه دال عليه وليس بموجود بل الايمان بأنه منزل حق ميسر باللغة العربية صدق يشهد لذلك هنا خطاب مولانا جل جلاله لأهل الجنة وكيف ييسر لهم سماع كلامه القديم الأزلي بلغة العرب لأن الالفاظ التي في الحديث هي علم مقتضى اللغة العربية وكذلك جاء أن كلام أهل الجنة بلغة العرب فيسر لهم عز وجل سماع كلامه القديم القائم بذاته الجليلة لأن الصفة الجليلة لا تفارق الموصوف فأسمعهم إياه بالنوع الذي هو لغتهم ليفهموا عنه سبحانه ما أرادهم بفضله ولا يمكن لأحد أن يتعرض للسلفية فكما